



من الصوف إلى النسيج: استمرارية الحرفة النسيجية التقليدية بمنطقة الجلفة بين وفرة المادة الأولية

وتحولات الصناعة التقليدية

From Wool to Weaving: Continuity of Traditional Textile Craft in the Djelfa Region Between Raw Material Abundance and Transformations of Traditional Industry

ط.د. / قواس ميلود¹، جامعة زيان عاشور الجلفة؛ (الجزائر). gaouasms@gmail.com

ا.د. بديرينة ذيب²، جامعة زيان عاشور الجلفة؛ (الجزائر). raoufe.med@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/06/30

تاريخ القبول: 2026/06/20

تاريخ الاستلام: 2026/05/21

ملخص:

تناول هذه الدراسة حرفة النسيج التقليدي بمنطقة الجلفة بوصفها ممارسة حرفية متواصلة تنطلق من وفرة المادة الأولية، وتستند إلى مهارات تقنية متوارثة، وتنتهي إلى منتجات ذات وظائف معيشية وثقافية متعددة. وينصب الاهتمام على تتبع مسار تحويل الصوف وشعر الماعز ووبر الإبل من مادة خام إلى منتج نسيجي نهائي، مع إبراز ما تكشف عنه هذه السلسلة من صلات وثيقة بين البيئة الرعوية، والتنظيم الأسري للعمل، والخبرة الحرفية المحلية. وتظهر المعطيات أن النسيج في الجلفة لم يكن نشاطا ثانويا، بل ارتبط بدخل الأسر، ولبي حاجات اللباس والغطاء والخيمة والتخزين، كما حملت بعض منتوجاته دلالات اجتماعية وثقافية واضحة، مثل البرنوس الوبري والخيمة. وفي المقابل، تبين الدراسة أن هذه الحرفة، رغم استمرارها، تعرف تحولات تمس بعض موادها ووظائفها وظروف إنتاجها، من ذلك دخول بعض المواد الاصطناعية بشكل جزئي، وتراجع مورد الوبر نتيجة تقلص تربية الإبل، وانتقال بعض المنسوجات من الاستعمال اليومي إلى مجالات التثمين والزينة. وتخلص الدراسة إلى أن النسيج التقليدي بمنطقة الجلفة يمثل شكلا من أشكال التراث الحي، لأن استمراره لا يقوم على مجرد حفظ تقنيات قديمة، بل على تفاعل متواصل بين المادة والمهارة والحاجة والتحول. كلمات مفتاحية: الجلفة؛ الصوف؛ الصناعة التقليدية؛ البرنوس؛ القشايية.

Abstract:

This study examines traditional textile craftsmanship in the Djelfa region as a continuous artisanal practice rooted in the abundance of local raw materials, sustained by inherited technical skills, and culminating in products that serve multiple subsistence and cultural functions. The focus is placed on tracing the transformation of wool, goat hair, and camel hair from raw materials into finished textile products, while highlighting the close interconnections revealed by this production chain between the pastoral environment, the family-based organisation of labour, and local craft expertise. The data demonstrate that textile production in Djelfa was by no means a marginal activity; rather, it was integral to household income and fulfilled essential needs for clothing, bedding, tent-making, and storage. Furthermore, certain products most notably the woollen burnous and the tent carried distinct social and cultural significance. At the same time, the study reveals that this craft, despite its continuity, is undergoing transformations affecting its materials, functions, and conditions of production. These include the partial introduction of synthetic fibres, the decline of camel hair as a resource owing to the contraction of camel herding, and the shift of certain textiles from everyday use toward domains of cultural valorisation and ornamentation. The study concludes that traditional textile craft in the Djelfa region constitutes a form of living heritage, insofar as its continuity rests not merely on the preservation of ancient techniques, but on an ongoing interaction between material, skill, need, and transformation.

Keywords: Djelfa; Wool; Traditional industry; Burnous; Qashabiyya.



تمثل الحرف النسيجية التقليدية أحد أهم المداخل لفهم العلاقة بين الإنسان ووسطه الطبيعي، لأنها لا تعكس فقط طريقة إنتاج مادة نافعة، بل تكشف أيضا عن صورة من صور التكيف مع شروط العيش، وعن طرائق انتقال المعرفة العملية داخل المجتمع المحلي. وفي منطقة الجلفة تكتسب هذه الحرفة خصوصيتها من اتصالها المباشر بالجمال الرعوي، ومن اعتمادها على مواد أولية حيوانية متوفرة، ومن استمرارها داخل الفضاء الأسري بوصفها نشاطا إنتاجيا ومعرفيا في الوقت نفسه¹.

وتبدو أهمية النسيج التقليدي في الجلفة من خلال حضوره في مجالات متعددة من الحياة اليومية. فهو حاضر في اللباس الشتوي، وفي الأغذية والأفرشة، وفي الخيمة ومكوناتها، وفي عدد من الأدوات المرتبطة بالتخزين والترحال. كما أن بعض منتجاته، وفي مقدمتها البرنوس الوبري والقشابة والفليج، اكتسبت شهرة محلية ومكانة خاصة داخل المجتمع، بما جعل هذه الحرفة تتجاوز حدود المنفعة المباشرة لتغدو جزءا من الذاكرة الاجتماعية والتميز المحلي².

ومن هذا المنطلق تطرح الدراسة الإشكالية الآتية: كيف تكشف حرفة النسيج التقليدي بمنطقة الجلفة، من خلال مسار تحويل المادة الأولية من الصوف وشعر الماعز ووبر الإبل إلى منتج نسيجي نهائي، عن استمرارية صناعة تقليدية حية تقوم على المهارة المتوارثة والبيئة الرعوية، وما الذي تعكسه هذه السلسلة الإنتاجية من ملامح واقع الصناعة التقليدية بالمنطقة؟

وتروم الدراسة تحقيق جملة من الأهداف، أهمها إبراز أسس استمرار الحرفة النسيجية في الجلفة، وتحليل المواد الأولية التي تقوم عليها، وتتبع مراحل تحويلها من مادة خام إلى منتج نسيجي، ثم بيان الوظائف المعيشية والثقافية للمنتوجات الناتجة، وأخيرا الوقوف عند بعض مظاهر الاستمرار والتحول في واقع الصناعة التقليدية بالمنطقة³.

1 مديرية السياحة والصناعة التقليدية لولاية الجلفة، منوغرافيا، الجلفة، د.ت، ص. 9.

2 المرجع نفسه، ص. 9.

3 مديرية السياحة والصناعة التقليدية لولاية الجلفة، منوغرافيا، ص. 9.

وقد اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، انطلاقاً من معطيات وصفية وتقنية وميدانية ووثائقية تتصل بحرفة النسيج في الجلفة. ويتيح هذا المنهج الجمع بين عرض عناصر الحرفة كما تظهر في مادتها وأدواتها ومراحلها ومنتجاتها، وبين قراءة ما تعنيه هذه العناصر في سياقها المحلي، دون الخروج عن حدود المعطيات المتاحة أو تحميلها ما لا تحتمله¹.

1.. المحور الأول: النسيج التقليدي بمنطقة الجلفة وأسس استمراريته:

لا يظهر النسيج التقليدي في منطقة الجلفة بوصفه نشاطاً هامشياً ضمن الصناعات التقليدية، بل يرد في المعطيات المتاحة باعتباره واحداً من أكثر الحرف اتصالاً بالحياة اليومية والاقتصاد العائلي المحلي. ويكفي أن تذكر الجلفة حتى تحضر معها صور البرنوس والقشاية والزراي والفليج، وهي منتجات لم ترتبط فقط بالاستعمال، بل رسخت حضورها بوصفها من العلامات المميزة للمنطقة².

وتتضح أهمية هذه الحرفة أكثر من خلال بعدها الاقتصادي. ففي مدينة مسعد، وهي من المراكز المعروفة بهذه الصناعة، أشارت إحصائيات ميدانية إلى أن 66% من العائلات تمارس نسيج الصوف والوبر، وأن 83% من هذه العائلات تعتمد على دخل المنتجات الصوفية والوبرية في معيشتها، مع إنتاج سنوي يفوق ثلاثين ألف قطعة منسوجة يدوياً³. وتفيد هذه الأرقام بأن النسيج لم يكن مجرد نشاط منزلي محدود، بل كان مورداً فعلياً للدخل، وسنداً معيشياً لعدد معتبر من الأسر.

غير أن استمرار هذه الحرفة لا يفسر بالبعد الاقتصادي وحده. فالمجتمع المحلي نفسه ساهم في حفظها من خلال الصبغة الأسرية التي انتقلت بها المهارات من جيل إلى آخر. فقد كانت ربة البيت تتولى تعليم بناتها مهارات الغزل والنسج منذ سن مبكرة، بينما يكتسب الذكور، بالمرافقة والمعايشة، معرفة تتصل

1 المرجع نفسه

2 مديرية السياحة والصناعة التقليدية لولاية الجلفة، منوغرافيا، ص. 9.

3 المرجع نفسه، ص. 9.



بجودة الصوف والوبر وخصائصهما.¹ ومن ثم فإن النسيج في الجلفة لم يكن ممارسة فردية معزولة، بل خبرة تتكون داخل محيط اجتماعي يشارك في نقلها وتقويتها.

وتتصل استمرارية الحرفة أيضا بعد ثقافي واضح. فالبرنوس الوري، على سبيل المثال، لم يكن لباسا شتويا فحسب، بل ارتبط في التمثلات المحلية بمعاني الرجولة والسيادة والشهامة، وصار من أنفس الهدايا التي تعبر عن الكرم والتقدير.² ولا يبدو هذا المعنى عرضيا، لأن القيمة الرمزية للمنتج تسهم عادة في ترسيخ حضوره الاجتماعي، وتمنحه قابلية أكبر للاستمرار. ويضاف إلى ذلك ما ارتبط بالحرفة من بعض المعتقدات والعادات، ولا سيما تلك المتعلقة بمراحل إعداد السدوة والعمل على النول، وهي عناصر بدأ كثير منها في التراجع، لكنها تظل شاهدة على عمق اندماج الحرفة في الثقافة المحلية.³

أما من الناحية الإقليمية، فإن البيئة الرعوية التي تميز الجلفة كانت سندا مباشرا لهذه الصناعة. فوفرة الأغنام والماعز والإبل وفرت المادة الخام، في حين فرضت برودة الشتاء في الهضاب العليا حاجة مستمرة إلى منسوجات تؤمن الدفء، مثل القشايبة والبرنوس والأفرشة الصوفية.⁴ وهكذا التقت وفرة المادة الأولية مع الحاجة المناخية ومع المهارة المتوارثة، فتهيأت للحرفة شروط الاستمرار المادي والاجتماعي معا.

وبذلك يمكن القول إن النسيج التقليدي في الجلفة استمر بفعل تضافر عدة عوامل: مورد اقتصادي فعلي، ونظام أسري ناقل للمهارة، وحمولة ثقافية لبعض المنتجات، ووسط طبيعي رعوي يمد الحرفة بموادها الأساسية ويمنح منتجاتها ضرورة معيشية واضحة.⁵

1 مقابلة مع الحرفية بلخيري خيرة يوم 2015/09/02 بمركز تثمين المهارات، مسعد، الجلفة.

2 المرجع نفسه.

3 Chantreaux, Germaine, "Le tissage sur métier de haute lisse à Ait-Hichem et dans le Haut Sebaou", Revue africaine, vol. 86, 1942, p. 261.

4 مديرية التكوين والبحث والإرشاد، مفاهيم حول الوسط السهبي، المحافظة السامية لتطوير السهوب بولاية الجلفة، الجلفة، 2010، ص. 5.

5 مديرية السياحة والصناعة التقليدية لولاية الجلفة، منوغرافيا، ص. 9؛ مديرية التكوين والبحث والإرشاد، مفاهيم حول الوسط السهبي، ص. 5.

2.. المحور الثاني: المادة الأولية في الحرفة النسيجية ووظائفها:

تقوم الحرفة النسيجية في الجلفة على مواد أولية ترتبط مباشرة بالثروة الحيوانية المحلية، وفي مقدمتها الصوف وشعر الماعز ووبر الإبل، إلى جانب مواد مساعدة مثل خيوط القطن، وإشارات إلى حضور بعض الألياف الاصطناعية بشكل جزئي.¹ ولا تبدو أهمية هذه المواد في مجرد توفرها، بل في اختلاف خصائصها وتنوع وظائفها داخل المنتجات النسيجية.

يأتي الصوف في مقدمة هذه المواد، بسبب ما تعرفه المنطقة من كثافة في تربية الأغنام. فقد بلغ عدد رؤوس الأغنام نحو 12 مليون رأس، كما أشارت المعطيات إلى إنتاج يقارب 2000000 كلغ من الصوف موزعة على تراب الولاية.² وقد جعل هذا الوفرة من الصوف المادة الأساسية في صناعة عدد كبير من المنتجات، من اللباس إلى الأغذية والأفرشة والزراي. كما يتنوع الصوف من حيث اللون، إذ يوجد الصوف الأسود المستعمل في القشايية السوداء المعروفة محليا بقشايية الدراعة، ويوجد الصوف الأبيض الذي يستعمل في القشايية البيضاء والبرنوس والزراي، إما بصورته الأصلية أو بعد صبغته.³

ولا يقتصر الاختلاف في الصوف على اللون فقط، بل يشمل الجودة أيضا. فالأعراق الحيوانية تختلف في نوعية الصوف الذي تنتجه؛ فبعضها متوسط الجودة، وبعضها أطول خصلة أو أجود نوعا.⁴ كما يمتاز الصوف عند جزه بوجود مواد دهنية تساعد على العزل الحراري وتقلل من نفاذ الماء، وهي خاصية مهمة في المنتجات المعدة للبرد والوقاية.⁵ وبذلك يتبين أن الصوف لم يكن مادة واسعة الانتشار فحسب، بل مادة تحمل خصائص وظيفية جعلتها صالحة لأكثر من استعمال.

1 Golvin, L., Aspects de l'artisanat en Afrique du Nord, Paris, PUF, 1957, p. 71.

2 مديرية التكوين والبحث والإرشاد، مفاهيم حول الوسط السهبي، ص. 5؛ مديرية المصالح الفلاحية لولاية الجلفة، مكتب الإحصاء، د.ت.

3 مقابلة مع الحرفية بلخيري خيرة يوم 2015/09/02.

4 لوزيرة كبير، النسيج البدوي في ولاية الجلفة، مذكرة تخرج لتثبيت في رتبة مفتش في السياحة والصناعة التقليدية، المدرسة العليا للسياحة بالفندق الأوراسي، الجزائر، 2008، ص. 14-15.

5 Ben Zekri, Ali, Etude de laine pour la préparation de norme national NA 10870 et NA 10869, p. 60.



أما شعر الماعز، فرغم أنه أقل مركزية من الصوف من حيث حجم الاستعمال، فإنه يؤدي وظيفة تقنية دقيقة داخل الحرفة. وتشير المعطيات إلى أن عدد الماعز في المنطقة يقارب مليون رأس، وأن شعره يخلط بالصوف أو بالوبر في صناعة الحبال والفليج وبعض المنتجات الخيمية.¹ ويعود ذلك إلى ما يمنحه هذا الشعر من صلابة ومتانة وعدم نفاذية، وهي خصائص تجعله ملائما للمنتجات التي تحتاج إلى احتمال أكبر أو قدرة أفضل على مقاومة الرطوبة.² ويجمع شعر الماعز بالجز أو القص أو بنزعه من الجلد قبل الدباغة، وهو ما يعكس تعدد طرق الاستفادة منه داخل الممارسة المحلية.³

ويحتل الوبر مكانة خاصة ضمن هذه المواد، لاقتترانه بمنتجات ذات قيمة عالية، مثل البرنوس الوبري والقشايبة الوبرية المشهورتين في مسعد. ويمتاز الوبر بالمتانة والخفة والفعالية في الحفاظ على الحرارة، كما يعرف بنعومة ملمسه وتدرج لونه البني المائل إلى الاصفرار بحسب نوع الإبل وسنها.⁴ وتشير المعطيات إلى أن الوبر الجيد يستخرج من الإبل الصغيرة، ويعرف محليا باسم "العقيقة"، وهو ما يدل على وجود خبرة محلية دقيقة في التمييز بين درجات المادة الواحدة.⁵

غير أن المعطيات المتعلقة بعدد الإبل في المنطقة لا تخلو من تفاوت، إذ يرد في النص رقم يقارب 100 ألف رأس، كما يرد رقم آخر في حدود 20000 رأس.⁶ وهذا التفاوت يقتضي الحذر عند التعامل مع المعطى العددي. غير أن ما يبدو ثابتا في الحالتين هو أن الإبل ظلت مصدرا مهما للوبر، وأن تقلص تربيتها ساهم في ندرة هذه المادة وارتفاع أسعارها، وهو ما ينعكس مباشرة على المنتجات الوبرية التي تقوم عليها.⁷

1 مديرية التكوين والبحث والإرشاد، مفاهيم حول الوسط السهبي، ص. 5.

2 مقابلة مع حبش أحمد، مربي مواش، يوم 2015/06/10، سد رحال، الجلفة.

3 المرجع نفسه.

4 مرزوق بته، الحرف والصناعات التقليدية بمدينة الحضنة، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر 2، 2014، ص. 85.

5 مقابلة مع حبش أحمد، يوم 2015/06/10.

6 مديرية التكوين والبحث والإرشاد، مفاهيم حول الوسط السهبي، ص. 5؛ مديرية المصالح الفلاحية لولاية الجلفة، مكتب الإحصاء، د.ت.

7 مرزوق بته، الحرف والصناعات التقليدية بمدينة الحضنة، ص. 85؛ مقابلة مع حبش أحمد، يوم 2015/06/10.

وإلى جانب هذه المواد الأساسية، يرد ذكر خيوط القطن في مرحلة إعداد السدوة، بما يفيد أنها تؤدي وظيفة تقنية مساعدة. كما تذكر المعطيات استعمال بعض الألياف الاصطناعية، مثل النايلون والبلاستيك، بصورة جزئية إلى جانب المواد الحيوانية.¹ وتظهر هذه الإشارة أن الحرفة بقيت قائمة في جوهرها على موادها التقليدية، لكنها لم تعد منغلقة تماما على عنصرها القديم، بل بدأت تستوعب بعض المواد الجديدة بحسب الحاجة والاستعمال.

ومن ثم فإن المادة الأولية في حرفة النسيج بالجلفة لا تحيل إلى وفرة خام فحسب، بل إلى معرفة محلية بكيفية توجيه كل مادة نحو الوظيفة التي تناسبها: الصوف للباس والأغطية والزراي، وشعر الماعز للمتانة وعدم النفاذية، والوبر للمنتجات عالية الجودة والخفيفة الدافئة.² انظر الشكل 1

3.. المحور الثالث: من الصوف إلى النسيج: مراحل التحضير والغزل والنسج

لا تبدأ الحرفة النسيجية في الجلفة عند لحظة الجلوس إلى المنسج، بل تمر قبل ذلك بسلسلة طويلة من المراحل، تبدأ من اقتناء المادة الخام، ثم تنظيفها وفحصها وإعدادها وغزلها، لتصل في النهاية إلى النسج. وتكشف هذه السلسلة عن تراكم خبرة عملية دقيقة، لا تختزل في استعمال أدوات بسيطة، بل تقوم على معرفة حسية وتقنية متوارثة.³

تبدأ العملية بمرحلة الجز، سواء تعلق الأمر بصوف الأغنام أو بوبر الإبل أو بشعر الماعز. ويتم ذلك يدويا باستعمال المقص، وغالبا ما ينتج جز الأغنام مرة في السنة خلال فصل الربيع، مراعاة لتحسن الطقس في الفترة التي تلي الجز.⁴ ولا تتصل هذه المرحلة فقط باستخراج المادة، بل أيضا بوعي الحرفيين والمربين

1 Golvin, L., Aspects de l'artisanat en Afrique du Nord, p. 71.

2 . مديرية المصالح الفلاحية لولاية الجلفة، مكتب الإحصاء، د.ت؛ مقابلة مع بلخيري خيرة؛ مقابلة مع حبش أحمد.

3 مقابلة مع بلخيري خيرة يوم 2015/09/02؛ مقابلة مع مومن زينية يوم 2015/09/03؛ مقابلة مع قرش حليلة يوم 2015/09/02

4 مقابلة مع حبش أحمد يوم 2015/06/10؛ مقابلة مع حبش مبارك يوم 2015/06/11.



باختلاف جودتها بحسب موضعها من جسم الحيوان وبحسب سنه؛ فسن الحيوان يؤثر في نعومة المادة وطولها وقيمتها العملية.¹

بعد ذلك تأتي مرحلة الغسل والتنظيف. فالصوف والوبر والشعر تكون عادة مشبعة بالغبار وبقايا النبات والعوالق المرتبطة بوسط عيش الحيوان. وفي الماضي كانت النساء يستعملن الماء الساخن وبعض الملح، أما اليوم فيستعملن ماء دافئا وغسولا غير مركز، مع الحرص على ألا يؤدي التنظيف إلى إزالة المادة الدهنية التي تحفظ للمنسوج لاحقا بعض خصائصه، خاصة ما يتعلق بعدم النفاذية والعزل.² وتكشف هذه الممارسة عن معرفة متوازنة بالمادة؛ فالمقصود ليس تنظيفها إلى حد إفساد خصائصها، بل إعدادها للمعالجة اللاحقة مع الحفاظ على ما يفيد في المنتج النهائي.

ثم تمر المادة بمرحلة فحص تقليدية تعتمد على الخبرة الحسية. وتعتمد الناسجات إلى تمييز أصل المادة وجودتها بوسائل عدة، منها الحرق والرائحة واللمس، إضافة إلى تقدير اللون والوزن والكثافة.³ وعند الحرق، تعرف المادة الأصلية من رائحتها ومن طريقة اشتعالها؛ إذ لا تستمر شعلتها كما يحدث مع المواد الاصطناعية.⁴ كما تعتمد النساء على رائحة الصوف أو الوبر المبتل، وعلى خبرتهن اللسمية، وعلى قدرتهن على التمييز بين التداخل الطبيعي للألياف وبين ما قد يطرأ عليها من غش أو خلط.⁵ وتظهر هذه المرحلة أن الحرفة ليست مجرد تنفيذ تقني، بل معرفة تقوم على الحواس وعلى المران الطويل.

وفي الحالات التي يتطلب فيها المنتج تدخلا لونيا، تمر المادة بمرحلة التخصيب ثم الصباغة. ويستعمل ملح الشب في الماء الساخن لتثبيت الصباغ، كما تستعمل كاربونات الصودا أو القشور الكلسية المتراكمة على

1 مرزوق بته، الحرف والصناعات التقليدية بمدينة الحضنة، ص. 85.

2 مقابلة مع بلخيري خيرة يوم 2015/09/02؛ مقابلة مع بن قويدر فاطنة يوم 2015/09/02.

3 مقابلة مع بلخيري خيرة؛ مقابلة مع مومن زينية؛ مقابلة مع قرش حليلة.

4 المرجع نفسه.

5 مقابلة مع لعجال أم الخير يوم 2015/09/03؛ مقابلة مع بلخيري خيرة يوم 2015/09/02.

المواقد لمنع تلبد الصوف، خاصة في حالة الزرابي.¹ وتشير المعطيات إلى أن الأصباغ الاصطناعية أصبحت اليوم أكثر استعمالا، بعد أن كانت الأصباغ تستمد سابقا من مصادر نباتية ومعدنية، مثل قشور الرمان والنيلة والفحم والكحل والصلصال.²

وقبل الغزل، تعتمد النساء إلى تقدير كمية المادة اللازمة للمنتوج المراد إنجازه. وهذه المرحلة ليست بسيطة كما قد تبدو، لأن الحرفيات يراعين فيها وزن المنتج وكثافته ونوعية الخيط المطلوب، ويتفاخرن عادة بخفة البرانيس والجلابيات متى اجتمعت الخفة مع التماسك.³ ويتم هذا التقدير على أساس الخبرة، مع مراعاة قطر خيوط الغزل وعدد خيوط السدوة العمودية.⁴

ثم تأتي مرحلة البشم أو التمشيط، وتعني فتح المادة الأولية وتنقيتها من العوالق الباقية، من غير تفكيك كامل للألياف حتى لا تفقد تماسكها.⁵ وتتم هذه العملية على مرحلتين: بشم يدوي تمهيدي، ثم بشم بالمشط التقليدي. كما تسهم هذه المرحلة في إدماج التفاوتات اللونية الطبيعية داخل مادة أكثر تجانسا، لأن الألياف المنتزعة من أجزاء مختلفة من جسم الحيوان لا تكون دائما متماثلة اللون.⁶

وتلي ذلك مرحلة التلفيف أو النفش باستعمال القرداش، حيث تتحول المادة إلى هيئة أكثر انتظاما تسمى محليا "الزيط"، وهي الهيئة التي تسبق الغزل المباشر.⁷ وبعدها تبدأ مرحلة الغزل باستعمال المغزل، ومن خلال الحركة الدائرية وفتل المادة تتحول الألياف إلى خيط نسيج يعرف محليا باسم "الطعمة". ويختلف قطر هذا

1 مقابلة مع بن قويدر فاطمة يوم 2015/09/02؛ مقابلة مع بلخيري خيرة يوم 2015/09/02.

2 مقابلة مع بلخيري خيرة؛ مقابلة مع غزال خضرة يوم 2015/09/02.

3 مقابلة مع مومن زينية يوم 2015/09/03؛ مقابلة مع قرش حليلة يوم 2015/09/02.

4 المرجع نفسه.

5 مقابلة مع بلخيري خيرة يوم 2015/09/02؛ مقابلة مع لعجال أم الخير يوم 2015/09/03.

6 مقابلة مع مومن زينية يوم 2015/09/03؛ مقابلة مع قرش حليلة يوم 2015/09/02.

7 مقابلة مع بلخيري خيرة يوم 2015/09/02؛ مقابلة مع بن يحيى الزهرة يوم 2015/09/04.



الخيط بحسب الحرفية وبحسب نوع المنتج المراد نسجه، وهو ما يدل على وجود صلة وثيقة بين مرحلة الغزل وخصائص المنتج النهائي.¹

أما مرحلة السدوة أو التسدية، فهي بداية إعداد المنسج. وتتم جماعيا عادة، بحضور ثلاث نساء على الأقل، حيث يمرر الخيط المعروف بالقيام بين وتدين مثبتتين في الأرض، مع ضبط ما يسمى "النيرة" لتفادي تداخل الخيوط ولضمان ترتيبها الدقيق.² وبعد اكتمال السدوة تنقل إلى المنسج، وتلف خيوطها على وتدين خشبيين يشكلان قاعدة العمل ورأسه، ثم تثبت بإحكام تمهيدا لعملية النسيج.³

وتبدأ بعدها عملية النسيج الفعلية، حيث تمرر خيوط اللحمة في الفجوة التي تتركها خيوط السدوة، وتعاد حركة التقلب والشد والرص بواسطة أدوات مثل "الروح" و"الخلالة" حتى يتماسك النسيج ويأخذ شكله النهائي.⁴ وتختلف طريقة النسيج بحسب المنتج؛ ففي النسيج المسطح، كما في البرنوس والحايك والفليج، يسود انتظام السداء واللحمة دون عقد، بينما تقوم الزراي على النسيج بالعقدة.⁵

ومن خلال هذا التسلسل يتبين أن تحويل المادة الخام إلى منسوج في الجلفة ليس عملية مختصرة أو آلية، بل سلسلة مترابطة من المراحل، لكل واحدة منها دورها الخاص، وكلها مجتمعة تعكس خبرة موروثية حافظت الحرفة بفضلها على استمرارها.⁶

4.. المحور الرابع: المنتج النسيجي بين الوظيفة المعيشية والدلالة الثقافية:

تنتهي سلسلة التحضير والغزل والنسيج إلى منتجات متعددة، تختلف من حيث الشكل والمادة والاستعمال، لكنها تلتقي في كونها جزءا من الحياة اليومية والثقافة المحلية في الجلفة. فالمنسوج هنا ليس زينة

1 المرجع نفسه.

2 مقابلة مع بلخيري خيرة يوم 2015/09/02؛ مقابلة مع غزال خضرة يوم 2015/09/02.

3 المرجع نفسه.

4 مقابلة مع بلخيري خيرة يوم 2015/09/02؛ مقابلة مع مومن زينية يوم 2015/09/03.

5 مقابلة مع بلخيري خيرة؛ مقابلة مع قرش حليلة؛ مقابلة مع مومن زينية.

6 مقابلات ميدانية متعددة واردة في الفصل

خالصة، كما أنه ليس منفعة عارية من الدلالة؛ بل يجمع بين الوظيفة العملية وما قد يحمله من معنى اجتماعي أو رمزي¹.

من أبرز هذه المنتجات الزربية، ومنها الفراش والفراشية. فالفراش، من نوع جبل عمور، يصنع في مناطق مختلفة من الولاية، مثل مسعد والشارف وعين وسارة، ويتميز بأشكاله الهندسية وألوانه التي يغلب عليها الأحمر الداكن والأسود، مع حافة قوية تقوى بشعر الماعز والوبر.² أما الفراشية فهي زربية أقصر ذات استعمال يومي، تنتشر في مختلف مناطق الولاية، وتتميز بجودة نوعها وتعدد ألوانها.³ وتدل هذه المنتجات على أن النسيج الجلفاوي لبي حاجات الفرش والتأثيث، من غير أن يغفل البعد الجمالي في اللون والزخرفة.

ويأتي الحايك والحنبل ضمن الأنسجة المنزلية المرتبطة بالغطاء. فالحايك غطاء رقيق من الصوف، ينسج بألوان مختلفة، ويستعمل غطاء عائليا، بينما الحنبل أثقل وزنا وأخشن، ويستعمل في التأثيث والأفرشة.⁴ ويكشف هذا التنوع عن قدرة الحرفة على إنتاج منسوجات تتفاوت في السمك والوزن والوظيفة، بحسب الحاجة.

أما في مجال اللباس التقليدي، فيبرز البرنوس الوبري بوصفه أحد أشهر منتجات الجلفة، ولا سيما في مسعد. وتصنع هذه القطعة من الوبر المنتقى بعناية، خاصة من "العقيقة"، ثم تغزل وتنسج حتى تأخذ شكل البرنوس الخفيف الوزن.⁵ وتكمن خصوصية البرنوس في جمعه بين الخفة والدفع، وهي خصائص عملية

1 مديرية السياحة والصناعة التقليدية لولاية الجلفة، منوغرافيا، ص. 9.

2 مقابلة مع بلخيري خيرة يوم 2015/09/02؛ مقابلة مع مومن زينية يوم 2015/09/03؛ مقابلة مع قرش حليمة يوم 2015/09/02.

3 المرجع نفسه.

4 مقابلة مع غزال خضرة يوم 2015/09/02؛ مقابلة مع بلخيري خيرة يوم 2015/09/02.

5 مقابلة مع بلخيري خيرة يوم 2015/09/02.



واضحة، لكنه في الوقت نفسه ارتبط في الوعي المحلي بمعانٍ أوسع، إذ عُدَّ رمزا للرجولة والسيادة، وهدية ثمينة ذات قيمة اجتماعية¹.

وتأتي القشائية، أو الجلابة الرجالية، بوصفها لباسا شتويا واسع الانتشار. وهي تصنع من الصوف أو الوبر أو من خلطات تجمع بين الصوف والدراعة أو الصوف والوبر وبعد النسيج، تنتقل إلى الخياطة التي يؤديها حرفيون مختصون، وقد تصل تكاليف خياطة البرنوس الوبري إلى مبلغ معتبر، بحسب ما ورد في المعطيات الميدانية.² ويظهر هنا أن المنتج النسيجي لا ينتهي عند النول، بل يكتمل عبر حرفة موازية هي الخياطة.

وفي المجال الخيمي والرحلي، تتجلى أهمية النسيج بصورة أوضح. فالخيمة، التي تعرف لدى أولاد نايل باسم "البيت الحمراء"، ليست مجرد مأوى منسوج، بل فضاء معيشيا ينظم الاستقبال والخصوصية، إذ يقسم بستان يسمى "الحيال" بين جهة الضيوف والجهة الخاصة بالنساء.³ كما توجد منها خيام كبيرة تستعمل في الأعراس والمواسم والتظاهرات، وهو ما يضيف عليها بعدا اجتماعيا وتمثيلا يتجاوز المأوى اليومي.⁴

ويرتبط بالخيمة منتج أساسي هو الفليج، الذي ينسج أفقيا من خليط شعر الماعز والصوف، بألوان رئيسية حمراء وسوداء، وتصنعه النساء البدويات بغرض البيع أو الاستهلاك الذاتي لتجديد الخيمة.⁵ وتضيف المعطيات أن الفليج صار اليوم يستعمل أيضا في تزيين أروقة الفنادق وافنيته، وهو تحول يكشف انتقال بعض المنسوجات من الاستخدام المباشر إلى مجالات التثمين والعرض.⁶

1 المرجع نفسه؛ مديرية السياحة والصناعة التقليدية لولاية الجلفة، منوغرافيا، ص. 9.

2 مقابلة مع الحرفي مسبل أحمد يوم 2015/09/22 بمحل خياطة البرنوس والقشائية، مسعد، الجلفة.

3 مقابلة مع بن يحيى الزهرة يوم 2015/09/04؛ مقابلة مع بلخيري خيرة يوم 2015/09/02.

4 المرجع نفسه.

5 مقابلة مع بن يحيى الزهرة يوم 2015/09/04؛ مقابلة مع غزال خضرة يوم 2015/09/02.

6 المرجع نفسه.

وتندرج كذلك ضمن المنتجات المنسوجة أدوات مخصصة لحاجيات الرجل، مثل "القرارة" أو الأكياس المنسوجة من شعر الماعز والصوف وبقايا وبر الجمل، وتستعمل لحزن الجيوب والمؤن.¹ وهو ما يدل على أن النسيج التقليدي في الجلفة دخل حتى في تفاصيل الاقتصاد المنزلي والترحال.

وعليه، فإن المنتج النسيجي في الجلفة يؤدي وظائف متعددة: يدفي، ويستتر، ويفرش، ويؤثث، ويحفظ، ويؤطر الفضاء المعيشي، كما يحمل في بعض الحالات دلالات اجتماعية وثقافية واضحة.²

5.. المحور الخامس: واقع الصناعة التقليدية ومظاهر الاستمرار والتحول

تكشف المعطيات المتصلة بالنسيج التقليدي في الجلفة عن واقع مركب؛ فهو واقع تتجاور فيه عناصر استمرار واضحة مع مؤشرات تحول لا يمكن إغفالها. ومن ثم فإن هذه الحرفة لا يمكن وصفها بأنها ثابتة تماما، ولا بأنها آيلة إلى الاندثار على نحو تام، بل تبدو أقرب إلى ممارسة ما تزال حية، غير أنها تتحرك داخل شروط جديدة.³

من أبرز عناصر الاستمرار وفرة المادة الأولية الأساسية، خاصة الصوف، بحكم كثافة تربية الأغنام في المنطقة، إلى جانب حضور الماعز والإبل بدرجات متفاوتة.⁴ كما أن الحرفة ما تزال تستند إلى آليات أسرية في نقل المهارة، حيث يستمر تعليم البنات مراحل الغزل والنسج، وتبقى بعض الأعمال جماعية، مثل التسدية وإعداد المنسج.⁵ وهذا النمط من التعليم بالممارسة يعد من أقوى أسباب بقاء الصنعة.

ويعزز هذا الاستمرار أيضا انتشار الحرفة في مناطق متعددة من الولاية، مع بروز مراكز معروفة ببعض المنتجات، مثل مسعد في البرنوس الوبري والقشايية، وزكار في القشايية البيضاء، وسد رحال في الفليج، فضلا

1 مقابلة مع بلخيري خيرة يوم 2015/09/02.

2 مديرية السياحة والصناعة التقليدية لولاية الجلفة، منوغرافيا، د.ت؛ مقابلات ميدانية متعددة.

3 مديرية السياحة والصناعة التقليدية لولاية الجلفة، منوغرافيا، ص. 9.

4 مديرية التكوين والبحث والإرشاد، مفاهيم حول الوسط السهلي، ص. 5؛ مديرية المصالح الفلاحية لولاية الجلفة، مكتب الإحصاء، د.ت.

5 مقابلة مع بلخيري خيرة؛ مقابلة مع مومن زينية؛ مقابلة مع غزال خضرة.



عن حضور الزربية في أنحاء مختلفة من المنطقة.¹ ويكشف هذا التوزع عن رسوخ الحرفة مجاليا واجتماعيا، وعن ارتباط بعض المناطق بسمعة نوعية خاصة في بعض المنسوجات.

كما يظل البعد الاقتصادي عنصرا مهما في استمرار الصناعة التقليدية. فالمعطيات الخاصة بمدينة مسعد، وما تشير إليه من نسب ممارسة وإنتاج، تبين أن النسيج ما يزال نشاطا ينتج دخلا، وأن بعض منتجاته لا تزال مطلوبة بحكم الحاجة إليها أو بحكم قيمتها المحلية.²

غير أن هذا الاستمرار يرافقه تحول في أكثر من مستوى. فمن جهة المواد، يذكر النص حضور بعض الألياف الاصطناعية، مثل النايلون والبلاستيك، إلى جانب المواد الحيوانية.³ كما أن الناسجات أصبحن يلجأن إلى اختبارات حسية، مثل الحرق، للتأكد من أصالة المادة وعدم اختلاطها بمواد غير تقليدية.⁴ ولا يعني ذلك انقطاع الحرفة عن مادتها الأصلية، لكنه يشير إلى تغير في البيئة المادية المحيطة بها.

ومن جهة الوسائل، تظهر المعطيات أن الأصباغ الاصطناعية أصبحت أكثر استعمالا من الأصباغ النباتية والمعدنية القديمة، وأن بعض الإجراءات في الغسل والتحضير تغيرت بدورها بحسب المتاح اليوم.⁵ وهذه التحولات لا تلغي البنية الأساسية للصناعة، لكنها تؤكد أن الاستمرار لم يكن بمعنى الجمود، بل بمعنى القدرة على التكيف.

1 مديرية السياحة والصناعة التقليدية لولاية الجلفة، منوغرافيا، ص. 9.

2 مديرية السياحة والصناعة التقليدية لولاية الجلفة، منوغرافيا، ص. 9.

3 Golvin, L., Aspects de l'artisanat en Afrique du Nord, p. 71.

4 مقابلة مع بلخيري خيرة؛ مقابلة مع مومن زينية.

5 مقابلة مع بلخيري خيرة؛ مقابلة مع بن قويدر فاطنة؛ مقابلة مع غزال خضرة.

وتظهر المهشاشة بشكل أوضح فيما يخص الوبر، إذ تشير المعطيات إلى ندرة هذه المادة وارتفاع سعرها بسبب تراجع تربية الإبل في المنطقة.¹ ونظرا لارتباط الوبر بمنتجات عالية القيمة، مثل البرنوس الوبري والقشايبة الوبرية، فإن تقلص مورده يؤثر مباشرة في جزء مهم من هوية النسيج المحلي.

كما أن بعض الأبعاد الثقافية المرتبطة بالحرفة بدأت في التراجع، مثل المعتقدات والعادات التي كانت ترافق مراحل إعداد السدوة والعمل على النول.² وقد لا يمس هذا التراجع جوهر التقنية، لكنه يعكس تحولا في المحيط الرمزي الذي كانت الحرفة تتحرك داخله.

ثم إن بعض المنسوجات لم تعد تؤدي الوظيفة نفسها التي كانت تؤديها سابقا. فالفليج، مثلا، ما يزال مرتبطا بالخيمة، لكنه صار يدخل أيضا في فضاءات الفنادق والتزين، كما أن الخيام الكبيرة أصبحت مطلوبة في الحفلات والمناسبات على نطاق أوسع. ويعني ذلك أن بعض المنتجات انتقلت جزئيا من مجال الاستعمال المباشر إلى مجال التمثيل التراثي أو التثمين الجمالي.

6.. خاتمة:

أظهرت هذه الدراسة أن حرفة النسيج التقليدي بمنطقة الجلفة تقوم على صلة عضوية بين البيئة الرعوية والمهارة التقنية المتوارثة والحاجة المعيشية. فوفرة الصوف وشعر الماعز ووبر الإبل وفرت الأساس المادي للحرفة، غير أن هذا الأساس لم يكن كافيا وحده، لأن تحويل المادة الخام إلى منتج نسيجي ظل رهينا بخبرة عملية دقيقة، انتقلت داخل الأسرة، وتجلت في مراحل الجز والغسل والفحص والبشم والغزل والتسدية والنسج.

كما تبين أن قيمة المنتج النسيجي في الجلفة لا تنحصر في وظيفته العملية، على أهميتها، بل تمتد إلى أبعاد اجتماعية وثقافية واضحة. فالبرنوس الوبري والقشايبة والخيمة والفليج ليست مجرد مصنوعات نافعة، بل تحمل أيضا حضورا رمزيا داخل المجتمع المحلي، وتدلل على استمرار صلات عميقة بين الحرفة وأنماط العيش والذاكرة الجماعية.

1 مديرية المصالح الفلاحية لولاية الجلفة، مكتب الإحصاء، د.ت؛ مرزوق بته، الحرف والصناعات التقليدية بمدينة الحضة، ص. 85.

5Chantreaux, Germaine, p. 261.



وفي المقابل، كشفت المعطيات أن هذه الحرفة، رغم استمرارها، تعرف تحولات محسوسة. فبعض المواد الاصطناعية دخلت مجال الاستعمال الجزئي، وبعض الوسائل القديمة تغيرت، كما أن ندرة الوبر نتيجة تراجع تربية الإبل ألقت بظلالها على جزء من المنتجات الوبرية. كذلك انتقلت بعض المنسوجات من مجال الاستخدام اليومي إلى مجالات التثمين والزينة.

وعليه، فإن حرفة النسيج التقليدي بمنطقة الجلفة تظهر بوصفها صنعة مستمرة، لا لأنها بقيت على حال واحدة، بل لأنها استطاعت أن تتواصل داخل التحول، محافظة على عناصرها الأساسية، ومتكيفة في الوقت نفسه مع ما استجد من شروط ومواد ووظائف. وهذا ما يجعلها، في حدود المعطيات المدروسة، مثالا واضحا على حرفة تقليدية ما تزال حية في صلتها بالمادة والمهارة والمجتمع.

7.. الملاحق:



شكل (1): التوزيع المجالي لمراكز الحرفة النسيجية بمنطقة الجلفة.



صورة رقم: (01) : المادة الأثولية الصوف والوبر



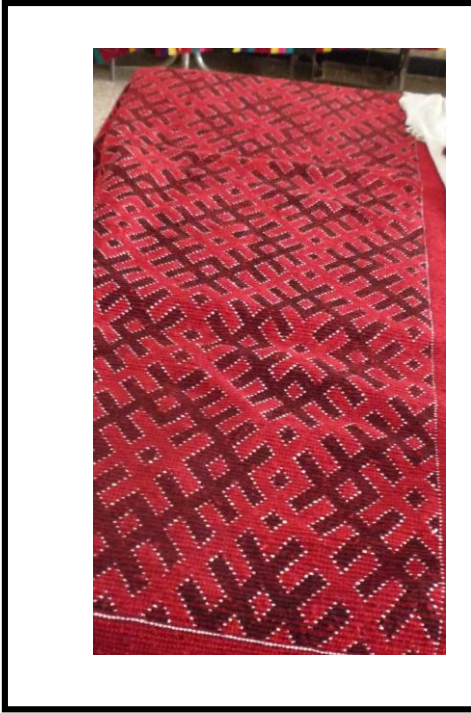
صورة رقم: (02) : عملية قص شعر الماعز



شكل رقم (03): عملية التقريدش



شكل رقم (02) : عملية غسل الصوف



صورة رقم (03) : الفراش نوع ٤ من الزداني



صورة رقم (04) : الفراشية نوع من
الزرايبي تحمل زخارف هندسية

8.. الببليوغرافيا

- بنة، مرزوق. الحرف والصناعات التقليدية بمدينة الحضنة. أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر 2، معهد الآثار، الجزائر، 2014.

- الطايش، علي أحمد. **الفنون الزخرفية الإسلامية المبكرة (فن العصرين الأموي والعباسي)**. القاهرة: مكتبة الزهراء الشرق للطبع والنشر والتوزيع، 2000.
- كبير، لويزة. **النسيج اليدوي في ولاية الجلفة**. مذكرة تخرج لتثبيت في رتبة مفتش في السياحة والصناعة التقليدية، المدرسة العليا للسياحة بالفندق الأوراسي، الجزائر، 2008.
- مديرية التكوين والبحث والإرشاد. **مفاهيم حول الوسط السهبي**. الجلفة: المحافظة السامية لتطوير السهوب بولاية الجلفة، 2010.
- مديرية السياحة والصناعة التقليدية لولاية الجلفة. **منوغرافيا**. الجلفة، د.ت.
- مديرية المصالح الفلاحية لولاية الجلفة، مكتب الإحصاء. **الجلفة**. د.ت.
- مرزوق، عبد العزيز. **الفنون الزخرفية الإسلامية في العهد العثماني**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.
- Ben Zekri, Ali. Etude de laine pour la préparation de norme national NA 10870 et NA 10869. d.t.
- Chantreaux, Germaine. "Le tissage sur métier de haute lisse à Ait-Hichem et dans le Haut Sebaou". Revue africaine, vol. 86, 1942.
- Golvin, L. Aspects de l'artisanat en Afrique du Nord. Paris: PUF, 1957.

ثانيا: المقابلات الميدانية

- بلخيري، خيرة. مقابلة ميدانية، مركز تثمين المهارات، مسعد، الجلفة، 2015/09/02.
- بن قويدر، فاطنة. مقابلة ميدانية، مركز تثمين المهارات، مسعد، الجلفة، 2015/09/02.
- بن يحيى، الزهرة. مقابلة ميدانية، مركز تثمين المهارات، مسعد، الجلفة، 2015/09/04.
- حبيش، أحمد. مقابلة ميدانية مع مربي مواش، سد رحال، الجلفة، 2015/06/10.
- حبيش، مبارك. مقابلة ميدانية مع مربي مواش، سد رحال، الجلفة، 2015/06/11.
- قرش، حليلة. مقابلة ميدانية، مركز تثمين المهارات، مسعد، الجلفة، 2015/09/02.



- غزال، خضرة. مقابلة ميدانية، مركز تثمين المهارات، مسعد، الجلفة، 2015/09/02.
- لعجال، أم الخير. مقابلة ميدانية، مركز تثمين المهارات، مسعد، الجلفة، 2015/09/03.
- مومن، زينة. مقابلة ميدانية، مركز تثمين المهارات، مسعد، الجلفة، 2015/09/03.
- مسيل، أحمد. مقابلة ميدانية بمحل خياطة البرنوس والقشابية، مسعد، الجلفة، 2015/09/22.